واقع . إنه يعود مرة أخرى إلى القول بأن الإيمان الحق هو ما يقوم على العقل، وأن هناك صلة قوية بين الدين والعلم، يقول: (الإيمان، لسنا نقصد الإيمان الأعمى، بل الإيمان الذى يسترشد بالعقل والفطرة، ومعنى الحياة والمثل والتقاليد، هذه الأمور يوجد فيها الباعث العلمى الذى يسمح لنا بالقول: هذا موجود، ولما كان المقصود هو توجيه العقل فى طريق يختلف عن النتيجة الميكانية للأشياء فمن المستحيل هاهنا أن يكون العلم كافيا، ولا تزال عبارة القديس «أوغسطين» التى لفتت نظر «باسكال» صحيحة، وهى أننا نعمل للمجهول، والحياة بالنسبة للإنسان الذى يفكر رهان، ولا يمكن أن نتصور أن تكون غير ذلك .

يترتب على هذا الشرط الأول شرط ثان، فالإيمان ليس بالضرورة قبولا سلبيا لما هو موجود، على العكس إنه قادر على اتخاذ موضوع لم يوجد بعد، ولا يبدو أن يكون واجبا، ولعله يكون مستحيلا لولا هذا الإيمان نفسه، ولهذا السبب كان الإيمان فى الإنسان بوجه عام، وفى الصفوة الممتازة بوجه خاص، يولد موضوعا من الفكر يختلف فى جدته، فهو إدراك عقلى أصيل يركز فيه بصره، والإنسان الذى يريد أن يعمل كإنسان لابد له من غاية، وكلما كان الإيمان شديدا قويا كانت هذه الغاية مثلا أعلى يختلف فى تميزه وسموه عن الواقع، فالإيمان أولا لايبصر موضوعه إلا غامضا، وعلى بعد فى الغيوم، ولكنه يجتهد فى تحديده بما يطابق حاجة العقل والإرادة فهو يحدد شيئًا فشيئًا كلما عمل على تحقيقه .

وأخيرا ينشأ عن الإيمان الخالق والموضوع الذى ينصبه أمامه، شرط ثالث للفعل هو المحبة، فالإرادة تعشق مثلها الأعلى بمقدار ما يتلون هذا المثل بظلال أكثر جمالا وحياة بالتأثير المؤتلف من الإيمان والعقل .

فهذه هى الشروط الثلاثة للفعل الإنسانى: الإيمان، والمثل الأعلى، والحماسة، ولكن أليست هذه هى بالضبط المراحل الثلاث لنمو الروح الدينية؟ ألا تعبر هذه الألفاظ الثلاثة تعبيرا أمينا عن الصورة التى تلبسها الإرادة والعقل والعاطفة بتأثير الدين؟ .

فالحياة إذن من أحد وجوهها تعنى من جهة مطامحها المثالية تشارك مشاركة طبيعية فى الدين، وإذ كان من الواضح من جهة أخرى لا من جهة صلة الحياة